

كتاب مستقبل الثقافة في مصر

الثقافة العامة

وتعليم اللاتينية واليونانية

الأستاذ أبي خلدون ساطع الحصرى بك

—♦♦♦—

يثير الدكتور طه حسين (في كتابه مستقبل الثقافة في مصر) مسألة « اللاتينية واليونانية » بشكل يستلفت الأنظار ويستدعي الاهتمام :

يسهل كلامه الطويل عن هذه المسألة (ص ٢٨٥ - ٣٠٢) بقوله : « إن وزارة المعارف لا تريد أن تقف عندها ولا أن تفكر فيها ، لأنها غريبة بالقياس إليها ، بل هي غريبة شاذة بالقياس إلى الكتلة العظمى من المثقفين المصريين ، مع أنها في نفسها ، من أوضح المسائل وأجلاها ... »

ولكنه تسرع ... على كل حال أحمد الله ... لقد كنت أخاف ... كيف أقول ؟ أخاف أن أظل أرعد وأرعد ، حتى أصير مثله تماماً بلا فرق « فسألتني : « ولماذا تخاف هذا ؟ » قلت : « لو حدث هذا لأصبحت صورة مكررة ... نسخة معادة ... طبعة ثانية لا تختلف عن الأولى إلا في زمن الصدور ... أي زيادة لا داعي لها ولا مزية ... ولكن وجودي تكلفاً لا مسوغ له ، وإسرافاً غير جائز ، وعناء باطلاً لا جدوى منه ... وسبحان ربى عن ذلك ... وكنت أخاف شيئاً آخر ... أن يضطرني ما يحوجني إلى المجلة إلى ترك أسلوبى الكتابى يفسد وينحط بأن يفقد صلته بالحياة ، وبأن يصبح عبارة عن قوالب قديمة مرصوفة فأكون كالمقاول الجاهل الذى لا يعرف غير طراز واحد من هندسة البناء ... أتعرفين أن عندنا في مصر « مقاولين » إخصائيين في بناء المقابر ؟ لو تركت أسلوبى يفسد بالإهمال والكسل لأصبحت كهذا الذى لا يبنى إلا القبور وما إليها ... ولكنى تنهيت والحمد لله فسأكون من هذا بعد اليوم على حذر ... ولو اتسع وقتى لراجعت ما كتبت أو كتبت من جديد ، ولكن ما فات مات ، والمبرة بما هو آت ، وعليك يا امرأة أن تجددينى ، أو على الأقل أن تحيينى على التجدد ، كما رأيته أنى أم بأن أجد وأركد ، وهذا خير ما تستطيعين أن تفعل ، إذا كنت تستطيعين شيئاً »

أبراهيم هجر القادر المازنى

ثم يستعرض الأدوار التى مرت على هذه المسألة في مصر ، ويشرح بإيجاز كيف « أن صاحب المقام الرفيع على ما هو باشا كان قد شعر بخطور هذه المسألة وهم بجلبها » عند ما كان وزيراً للمعارف . فقد بدأ بإدخال اللاتينية واليونانية في بعض المدارس الثانوية ، وأقر تعليم هاتين اللغتين في الجامعة - بالقياس إلى كليتى الآداب والحقوق - غير أنه لم يمض زمن طويل على ذلك ، حتى ألغيت اللاتينية واليونانية من المدارس الثانوية ، وقام « صراح عنيف حول إقرار اللاتينية بالقياس إلى كلية الحقوق ، وانتهى هذا الصراع بانتصار خصوم اللاتينية ... »

يصف الدكتور طه حسين « الحالة الحاضرة » التى نجمت عن ذلك بأشد أوصاف اللوم وأعنفها ؛ فيبذل في حديثه كلمات « المضحك ، المخجل ، المخزى ... » ويوصل الأمر إلى درجة استعمال ألدع التعبيرات وأقرصها ، من « الرضاء بالهوان » إلى « الاستخذاء أمام الأوربيين » و « الاطمئنان إلى المخزى الملبين ... »

وذلك لأنه يعتقد بضرورة اللاتينية واليونانية للثقافة العالية ،

ويسر عن اعتقاده هذا بكلمات بانه :

« أنا مؤمن أشد الإيمان وأعظمه وأقواه ، بأن مصر لن تظفر بالتعليم الجامعى الصحيح ، ولن تفلح في تدير مرافقها الثقافية الهامة ، إلا إذا عثت بهاتين اللغتين ، لا في الجامعة وحدها ، بل في التعليم العام قبل كل شيء (ص ٢٨١)

لأن « اللاتينية واليونانية أساس من أسس العلم والتخصص » (ص ٢٨٥) فيجب أن نفرضا على « كل من يريد العلم الخالص والتخصص فيه » (ص ٢٧٦) و « لأن التعليم العالى الصحيح لا يستقيم في بلد من البلاد الراقية إلا إذا اعتمد على اللاتينية واليونانية على أنهما من الوسائل التى لا يمكن إهمالها والاستغناء عنها ... » (ص ٢٩٢)

ولهذا السبب ، يوجه الدكتور إلى معارضيهِ السؤال التالى ، ويجب عليه بالملاحظات التى تليه :

« والسؤال الذى يجب أن تلقيه وأن نجيب عنه في صراحة وإخلاص وفي وضوح وجلاء هو هذا السؤال : أريد أن ننشئ في مصر بيئة للعلم الخالص تشبه أمثالها في البيئات العلمية في أى بلد من البلاد الأوربية الراقية أو المتوسطة أم لا تريد ؟ فإن كانت الثانية فقد خسرت القضية ، وليست مصر في حاجة إلى يونانية

الأول لسلكية الآداب الحكومية (ص ٢٧٩) ، غير أنه يمزوها في المرة الثانية إلى عوامل أساسية تلخص - من حيث الأساس - في نقص « ثقافة القائمين بشئون التعليم في مصر » (ص ٢٨١) يقول المؤلف في هذا الصدد : « وأكبر الظن أن مصدر هذا إنما هو أن الجيل الحاكم والمرتقى إلى الحكم لا يتقن العلم بالشئون الثقافية في أوروبا ولا يكاد يعرف منها إلا ظواهرها ، وظواهرها الغريبة البسيرة التي لا يحتاج فهمها ولا العلم بها إلى جهد ولا عناء » (ص ٢٨١)

إذ أن « منهم من تعلم في المدارس المصرية وانتهى إلى غاية التعليم العالي المصرى أيام الاحتلال ، ثم وقف عند ذلك ولم يتجاوزه فلم يعرف من حقيقة التعليم شيئاً أو لم يكد يعرف منه شيئاً ... » (ص ٢٨١) ومنهم « من اتصل بالجامعات الأوربية قبل أن يتم التعليم العالي في مصر أو بعد أن أنه فدرس فيها وظفر ببعض إجازاتها ، ولكنه درس فيها عجلاً وظفر بأيسر إجازاتها وأهونها وانتفع في هذا كله بنظام المبادلات التي تقره الجامعات الأوربية لتيسر على الأجانب الاختلاف إليها وترغبهم في الاتصال بها ... » (ص ٢٨٢) ، ولذلك عاد من أوروبا دون أن يعرف « من الحياة العقلية الأوربية إلا ظواهرها وأشكالها ... » (ص ٢٨٣)

وإن « بين الذين ذهبوا إلى أوروبا وعادوا منها وبين الذين أقاموا في مصر واتصلوا بأوروبا بعض الاتصال ، من ألم اللامآ يسيراً بل اللامآ ناقصاً مشوهاً بهذه الخصومة التي قامت في أوروبا منذ أواخر القرن الماضي بين الديمقراطيين والمتطرفين من جهة ، وبين المعتدلين والمحافظين من جهة أخرى حول تعليم اللاتينية واليونانية ... » (٢٨٤) « إنهم فهموا هذه الخصومة على غير وجهها الصحيح ، وظنوا أن التجديد يقتضى بنض هذه الأشياء القديمة ... » ولم يخطر لهم أن يتعمقوا هذه الخصومة ولا أن يتبينوا موضوعها وغايتها ... » (ص ٢٨٥)

إن المقاومة التي تلقاها اللاتينية واليونانية في مصر نشأت من هذا النقص الأساسى . فلو خطر لهؤلاء أن يتعمقوا هذه الخصومة لعرفوا أن موضوعها « لم يكن ضرورة هاتين اللغتين للثقافة والحضارة ، وإنما كان ضرورة فرضهما على جميع التلاميذ الذين يختلفون إلى المدارس الثانوية ويتصلون بالتعليم العالي على اختلاف فروعهم وألوانه لاسيما بعد أن انتشر التعليم وطعمت فيه

ولا إلى لاتينية ، وليست مصر في حاجة إلى الجامعة وإلى كلياتها بل حسبا أن تعود إلى عهدها أيام الاحتلال ، وأن تسير سيرة المستعمرات وتكتفى ببعض المدارس المالية لتخرج من تحتها إليهم من الموظفين . وإن كانت الأولى فقد ربحت القضية ، ولا بد من العناية بهاتين اللغتين لا في الجامعة وحدها ، بل في المدارس العامة أيضاً ^(١) (٢٨٨)

يظهر من هذه المبارات أن الدكتور يعتبر هاتين اللغتين من لوازم الجامعة الأساسية ، ويدعى أن عدم العناية بهما لا يختلف كثيراً عن طلب إلغاء الجامعة نفسها ، ويرى بأن ذلك لا يجوز إلا إذا طلب من مصر أن تعود إلى عهدها أيام الاحتلال وأن تسير سيرة المستعمرات ...

وقد يحظر على بال الفارى أن يسأل مستغرباً : إذا كانت للسألة بهذه الدرجة من الوضوح والجلالة فكيف وجدت هذه المقاومة وهذا الازورار في دوائر المعارف ومحافل المثقفين ؟ إن الدكتور يبدى هذا الاستغراب فيقول : « ومن أغرب الأشياء في نفسى وأبعدها عن فهمى ألا يغلظ لها ولا يهتدى إليها الذين ينهضون بشئون مصر ويقومون على تدبير الأمور فيها ، والذين يشرفون على التعليم فيها بنوع خاص ... » (ص ٢٨١) يبحث الدكتور - مع هذا - عن أسباب هذه المقاومة عدة مرات ، فيعزوها مرة إلى عوامل عرضية مثل استياء الإنكليز من انتخاب معلمى هاتين اللغتين من الفرنسيين والبلجيكيين (ص ٢٧٥) ، أو كيد أستاذ من أساتذة كلية الحقوق للمعيد

(١) يستعمل الدكتور طه حسين في الفقرات التي نقلناها هنا - وفي سائر الأقسام في كتابه - تعبيرات « التعليم العام والمدرسة العامة » بمعنى « التعليم الثانوى والمدرسة الثانوية » ، فخرج « على القول والمألوف » في وقت واحد ، باستعمال هذه التصيرات - على هذا للنوال - استعمالاً غافلاً لمعانيها الفنية من جهة ولمعانيها الاصطلاحية من جهة أخرى . نظن أن الدكتور - أراد أن يفندى بالانكليز الذين يسمون نوعاً من مدارسهم الثانوية بمثل هذا الاسم Public school غير أننا نود أن نلفت الأنظار إلى أن هذا الاسم عديم في الموارث التاريخية التي لم تعد تنطبق على معيانيها بوجه من الوجوه . لأنهم كانوا سموا التعليم في تلك المدارس باسم « التعليم العام » تمييزاً له من « التعليم الخاص » الذى كان يجري في بيوت الخواص - بل أيدي معلمين خاصين ، وذلك قبل أن تنول فكرة التعليم العام بالمعنى الذى فهمه الآن

فإذا كانت التقاليد الانكليزية المؤسسة في هذا الباب ، تعمل القوم على الاستمرار في استعمال هذا الاسم الموروث من سالف القرون - بالرغم من عدم مطابقته لمعناه الحاضر ، فهل يبرر لنا نحن أن نتهدي بهم في مثل هذه التسميات النادرة ؟

صياح الصائحين وأحس هياج الهائجين ، وأشعر بما سيثور من سخط ، ولكنى مع ذلك مقتنع بما أقول ، مدعن بصواب ما أدعو إليه ، ملح في هذه الدعوة ، غير حافل بالرضا ولا بالسخط ، ولا معنى إلا بما أعتقد أنه يحقق المنفعة الثقافية للمصريين . . . » (ص ٣٠٠)

إن هذه الاقتباسات التفصيلية ، التي لخصت فيها آراء الدكتور طه حسين - دون أن أبدى شيئاً من موافقتي لها أو اعتراضى عليها - تبين بكل وضوح وجلاء أن مسألة « اللاتينية واليونانية في مصر » تطورت تطوراً غريباً ووصلت إلى طور حاد يحتاج إلى قرار حاسم

هذه المسألة لم توضع على بساط البحث في محافل المعارف والترتية في سائر الأقطار العربية ؛ غير أن إثارتها ومناقشتها في مصر بهذه الصورة مما يجب أن يحمل المحافل المذكورة أيضاً على التفكير في أمرها ، لتكون رأى صريح فيها ، واتخاذ قرار معقول في شأنها . . .

ولهذا السبب ، رأيت من واجبي أن أتدخل في هذا البحث الذى يشيره الدكتور في كتابه ، وأبدى ما لدى من الملاحظات حول هذه المسألة . . .

إننى أعتقد أن الطريقة المثلى لحل أمثال هذه السائل هي : أولاً : درسها من وجوها الأوربية البحتة درساً صحيحاً مجرداً عن كل فكرة قبلية مع ملاحظة العوامل التاريخية التى أثرت عليها فى الماضى والمذاهب الفكرية التى تحوم حولها فى الحاضر .. وبعد ذلك الإقدام على التفكير فى المسألة من وجهة أحوال بلادنا وحاجات أمتنا ، مع الاستئارة بالاختبارات التى تكونت والآراء التى تبلورت حولها فى أوروبا

وإنى عملاً بما تقتضيه هذه الطريقة أبدأ بمحنى بإلقاء نظرة إيجابية على تاريخ مسألة تعليم اللاتينية واليونانية فى البلاد الغربية فأقول : من المعلوم أن اللغة اللاتينية كانت لغة روما فى القرون الأولى غير أنها صارت بعد ذلك لغة الطبقة المدبرة والمستفيرة فى جميع أنحاء أوروبا الغربية عند ما دخلت تحت حكم روما ، كما أصبحت لغة الدين والصلاة فى تلك البلاد عند ما اعتنقت الديانة المسيحية ؛ وأخيراً صارت من دعائم الكنيسة الكاثوليكية عند ما تكونت

الطبقات كلها طبقات الأغنياء والفقراء وأوساط الناس .. » (ص ٢٨٥)

يحاول الدكتور أن يصحح مزاعم هؤلاء فيؤكد أن « موضوع الخصومة كان فى حقيقة الأمر هذه المسألة : أيجب أن يتبها الناس جميعاً للعلم والتخصص ليصبحوا جميعاً قادة للرأى ومديرين للأمور العامة ، أم يجب أن يتبها بعضهم لحياة العلم والتخصص ، وأن يتبها أكثرهم للحياة العاملة التى تدرس لهم الاضطراب فى طلب الرزق وكسب القوت ؟ فإن تكن الأولى فلا بد من اللاتينية واليونانية لأنهما أساس من أسس العلم والتخصص ؛ وإن تكن الثانية فكثرة الناس محتاجة إلى التعليم الفنى من جهة ، وإلى التعليم العام الحديث الذى يمرض عن اللاتينية واليونانية إلى اللغات الحية والمعلوم التجريبية ، بشرط أن تظل اللاتينية واليونانية مفروضتين على كل من يريد العلم الخالص والتخصص فيه . . . » (ص ٢٨٥ - ٢٨٦)

مع هذا ، يلاحظ الدكتور طه حسين - فى محل آخر من كلامه - أن المقاومة التى تلقاها اللاتينية واليونانية فى مصر ، لا تنحصر فى دوائر المعارف ، بل تشمل معاصر الثقفين بأجمعها .. إنه يلاحظ ذلك أيضاً ، ويملحه « بالمادة لا أكثر ولا أقل » إذ يقول : « إنهم لم يتعلموا اللاتينية ولا اليونانية ، ولم يسمعوا بهما أثناء اختلافهم إلى المدارس العامة ؛ وقد رأوا مصر تعيش عيشها الحديثة من غير هاتين اللغتين ، فلم يترددوا فيما انتهوا إليه من الاقتناع بأن تعليم هاتين اللغتين تزيد لا حاجة إليه ولنمو لا خير فيه . . . » (ص ٢٩١)

وبعد ذلك ، يكرر المؤلف دعوته إلى العناية بهاتين اللغتين اعتباراً من الدراسة الثانوية ؛ فيقترح تنويع التعليم الثانوى إلى ثلاثة أنواع ، على أن يستند النوع الواحد منها إلى تعليم اللغات القديمة . يفرض فيه « على الطالب درس اللاتينية ولغة أجنبية حية ، ويترك له الخيار بين اللغة اليونانية ولغة أوربية أخرى » ويحتم الانتساب إلى هذا الفرع على « كل من أراد أن يهيئ نفسه بعد الثقافة العامة للدراسات الأدبية المختلفة » بما فيها الفلسفة والتاريخ والجغرافيا . . . (ص ٣٠١)

لا يجهل المؤلف المقارمة التى سلقاها فكرته هذه من مختلف المحافل والبيئات فيقول : « أنا أرى أن أثناء إملأى هذه الكلمات

الحياة الفكرية والدينية سيطرة تامة ، ولذلك اعتمدت على اللاتينية كلغة تعليم في جميع فروعها

في الواقع كانت الجامعات المذكورة أدخلت في مناهجها مدة من الزمن تعليم اللغات العربية والعبرية والثرمانية أيضاً... العربية لكونها مصدر العلوم في تلك القرون ، والعبرية لكونها لغة الكتاب المقدس القديم ، واليونانية لكونها لغة الأنجيل الأصلية... غير أن العربية والعبرية خرجتا بعد مدة من ميدان مشاركة اللاتينية في التعليم ؛ وظلت اليونانية اللغة الوحيدة التي تساعد اللاتينية في مهمتها العلمية والتعليمية ؛ وقد رسخت قدمها في هذا الميدان - بمرور الزمن ، ولاسيما بعد أن بدأ الاهتمام بخزائنها العلمية والأدبية ...

إن معاهد التعليم الثانوي التي تأسست لهيئة الطلاب للجامعات تأثرت بهذه الحالة العامة ، فاعتبرت اللاتينية أساس كل شيء ، ولم تشرك بها لغة غير اليونانية في بادئ الأمر

إن تاريخ التعليم في فرنسا يقدم تفاصيل وافية عن أحوال تلك المدارس ومناهجها الدراسية وتعليماتها الإدارية . ونفهم من تلك التفاصيل أن المدارس الثانوية في القرن السادس عشر كانت بمثابة مدارس لاتينية بكل معنى الكلمة : لا يدرس في سنتها الأوليين شيء غير اللاتينية ؛ ثم يضاف إليها في السنة الثالثة مبادئ اللغة اليونانية ، وفي السنة الأخيرة بعض المسائل الرياضية . وأما اللغة الفرنسية أو العلوم الأخرى ، فلم تشغل أي حيز كان في مناهج الدراسة . حتى إن التكلم باللغة المذكورة كان يعتبر من الأمور الممنوعة على المعلمين والطلاب في خلال الدرس أو بعد الدرس ، في داخل الصف أو في خارج الصف ... وهذا النوع كان مؤيداً بعقوبات عديدة وشديدة ...

أبو عمرو

« يتبع »

الافصح في فقه اللغة

مجمع عربي : خلاصة المختص وسائر المعاجم العربية . يرب الألفاظ العربية على حسب معانيها ويسفك باللفظ حين يحضرك المعنى . أقرته وزارة المعارف ، لا يستثنى عنه مترجم ولا أديب ، يهرب من ٨٠٠ صفحة من القطع الكبير . طبع دار الكتب ، عنة ٢٠ قرشاً يطلب من مجلة الرسالة ومن للكتبات الكبيرة ومن مؤلفه :

جميع يوسف مرسى ، عبد الفتاح الصفيدي

الكنيسة المذكورة وأخذت تبسط سلطتها على جميع الدول والدويلات التي تدن بها . فقد نبئت الكنيسة اللغة اللاتينية واتخذتها واسطة لضمان وحدتها ، ولذلك عملت على نشرها في جميع البلاد التي دخلت تحت حوزتها ، حتى بعد تضاؤل سلطة الامبراطورية الرومانية وزوالها بصورة نهائية ...

وأما اليونانية فقد حافظت على كيانها في معظم البلاد التي انتشرت فيها بالرغم من استيلاء الرومان عليها ، كما أنها أصبحت لغة الدولة بعد انفصال الشرق عن الغرب ، وتكون الامبراطورية الشرقية مستقلة عن امبراطورية روما الغربية ، كما أصبحت لغة الدين والصلاة في العالم الأرثوذكسي عندما اعتنقت الامبراطورية المذكورة الديانة المسيحية ...

بهذه الصورة تقاسمت اللغتان اللاتينية واليونانية السيطرة على الحياة الدينية في أوروبا المسيحية ، فأصبحت الطقوس والصلوات المسيحية تحت احتكار اللاتينية في أوروبا الغربية في جميع البلاد التي اعتنقت المذهب الكاثوليكي ، وتحت احتكار اليونانية في أوروبا الشرقية - في جميع البلاد التي اعتنقت المذهب الأرثوذكسي - واستمر الحال على هذا المنوال طوال القرون الوسطى حتى حلول عصر النهضة وظهور البروتستانتية ...

وأما الحياة الأدبية العلمية ، في القرون الوسطى ، فمن العلوم أنها لم تجد من يزاوئها ويهتم بها إلا من بين رجال الدين ؛ فماشت وترعرعت تحت ظلال الكنائس وفي أروقة الأديرة ، وارتبطت لذلك - هي أيضاً - باللغة اللاتينية . فأصبحت هذه اللغة لغة العلم والأدب في جميع بلاد الغرب علاوة على كونها لغة الدين والصلاة ...

من المعلوم أن اللاتينية تغلغلت في بعض البلاد الغربية بين جميع طبقات الناس ، فأصبحت لغة الموام ، وأخذت تتطور من جراء ذلك بصورة تدريجية إلى أن ولدت اللغات التي عرفت فيما بعد بالإيطالية ، والفرنسية ، والأسبانية ، والرومانية . مع هذا ، ظلت اللاتينية الأصلية لغة الدين والصلاة ، ولغة العلم والأدب ، حتى في تلك البلاد ، وحتى بعد تكون اللغات المذكورة واستقلالها عن دوحتها الأصلية

إن الجامعات الأوربية والمعاهد التعليمية التابعة لها ، أخذت تأسس - في القرون الوسطى - في دور سيطرة اللاتينية على